تداولية الخطاب القرآني بين المتخاطبين والسياقات

Pragmatism of the Quranic discourse between the speakers and contexts

د. عبد الناصر مشري

قسم اللغة والأدب العربي جامعة قاصدي مرباح -ورقلة - الجزائر

nacermechri17@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/11/22 تاريخ القبول: 2019/12/16

الملخص:

لمَّا كان الأسلوب هو الطريق إلى المتلقي، وكان المتلقون مختلفين أحوالا ومقامات، فإنَّ كلَّ رسالة مرهونة بمدى ملاءمة أسلوبها لأحوال المتلقّين وظروفهم ومراعاتها لما بينهم من فروق، آنية إِأودائمةٍ، لأنَّ فعل التلقي هو إنتاج جديد للنص، وطلبا لبلاغ الرسالة فإنَّ المخاطِب يستفرغ الجهد في تطويع اللغة بانتقاء ما يناسب من خياراتها المتاحة لتأدية حمولتها الدلالية؛ ذلك أنَّ اللغة التي هي بالأساس ذات وظيفة تواصلية قد تتضمن بعضُ ألفاظها وعباراتها ما يقف حائلا دون نفاذ الرسالة ، أو يوجه الدلالة في غير ما قصد منشؤ الخطاب ممَّا يسوغ السؤال عن هامش الحرية الذي يتحرك فيه المخاطِبُ وحدودِه .

الكلمات المفتاحية : المخاطِب - التداولية - الخطاب - القرآن - السياق.

الملخص بالأجليزية..

Since the style is the only way to receivers who are, par-excellence, different, the message is determined by the extent to which it is appropriate to the receivers' state of mind, conditions, and both their permanent and impermanent differences. The reception is something impermanent: it is a new production of the text; to receive a message, the sender makes great efforts to localize and select the appropriate language which carries a significant semantic t load. This is because language is a vehicle of transmission, and it could vehicle some lexicon items and phrases which prevent the message from its transmission and thus its reception. Sometimes, the significance of the message is not well received by the receiver owing to the different expectations. This is what may raise questions about the speaker's/sender's space which allows him a certain freedom of reaction.

Key words: speaker/sender, pragmatism, message, Quran, context

يستمد المخاطب أهميته التداولية من كونه صاحبَ الخطاب و مصدرَه وأنَّه الأحرصُ على نجاح التواصل مع الآخر من حيث كان البادئَ بالخطاب أو المجيبَ إليه، وتوخيًّا لهذه الغاية فإنَّه يستفرغ الجهد في انتقاء ما يراه مناسبا من عناصر اللغة و أساليبها الضامنة لنفاذ الرسالة وبلوغها ، ولا زال القراء يعرفون الكتَّابَ بأساليبهم فيستملحون كاتبا ويستسمجون آخر وهم لم يعرفوا للأوَّل ولا الثاني .

ولما كان الأسلوب هو الطريق إلى المتلقي، و كان المتلقون مختلفين أحوالا ومقامات، فإنَّ كلَّ رسالة مرهونة بمدى ملاءمتها لأحوال المتلقِّين وظروفهم ومراعاتها لما بينهم من فروق، آنية أودائمة، ولأهمية فعل التلقي الذي هو إنتاج جديد للنص، فإنَّ المخاطب أحرس ما يكون على مراعاته ولكن ضمن هامش حرية تضبطُه موافقتُه لحال المتلقين ومراعاته لتلك الأحوال والسياقات؛ ذلك أنَّ اللغة التي هي بالأساس ذات وظيفة تواصلية قد تتضمن بعضُ عباراتها ما يقف حائلا دون التواصل، أو يوجه الدلالة في غير ما قصد منشؤ الخطاب.

و الحقيقة أنَّ المخاطِب يقع تحت تأثير ثلاثة عوامل هي :

أ- حالته النفسية ومِزاجه هو نفسه: ذلك أنَّ عبارة الخائف ليست كعبارة الآمن، وعبارة المتوعِّد غيرُ عبارة المهنِّئ، وأسلوب التهديد غير أسلوب الرجاء ....؛ ومعلوم أنَّ << ثمة ارتباطا وثيقا بين هيئة الكلام و ما يعتمل في النفس من مشاعر و أفكار، والعبارة الصادقة هي التي تحمل أنفاس صاحبها >>[1]، وقد فطن بعض البلاغيين للأثر الذي يمكن أن تحدثه الحالة النفسية للمتكلمين على نصوصهم وتحدثوا عن العلاقة بين أمزجة المتكلمين وأساليبهم مثلما فعل السكاكي حين أشار إلى أنَّ بعض الالتفاتات إنَّما هي نتيجة لتأثير تلك الحالات الشعورية [2].

بـ - طبيعة المتلقي: إذ إنَّ << المتكلم بعامة يكيف صيغة خطابه بحسب أصناف الذين يخاطبهم >>[3] فيأمر مَن دونه ويترجَّى من فوقه، ويعدل إلى الجمع في خطاب ذي السلطان ومَن في حكمه، وإلى المخاطبة عند المواجهة، وإلى الغيبة عند الحكاية، و نحو ذلك مما تستوجبه صفة المتلقي وأوضاعه.

و يذهب البعض إلى أنَّ خيال المخاطِب يتجاوز المتلقي إلى استحضار أشخاص آخرين غيرِه، فلا يتكلَّم إلاَّ وقد صاغ عبارته بما لا يتعارض ومستويات من استحضرهم أو يمسَّ بمكانتهم، فينتج عن ذلك أنْ << تتغيَّرَ مرجعية الضمير فيقوم الحاضر مقام الغائب، والغائب

مكان الحاضر، و ما يترتب على ذلك من تأنيس المخاطب و تسليته، أو تحقيره وتبكيته، وغير ذلك من معاني الالتفات التي لا تُستفاد إلاَّ من خلال السياق و التركيب >>[4].

و هذه العلاقة القائمة بين المخاطِب و المتلقِّي تُعتبر صمام الأمان في التواصل، والحِذْقُ كلُّ الحذقِ من المخاطِب – على وجه التحديد – في حفظها و مراعاتها إلى الحد الذي يجعلها في أهمية الرسالة ذاتها، و تنبني هذه العلاقة – في ما رآه التداوليون – على خمسة مبادئ هي :

1- مبدأ "التعاون والاقتصارعلى جانب التبليغ" للفيلسوف الأمريكي بول غرايس، تلخصه العبارة : "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه".

2- مبدأ " التأدب واعتبار جانب التهذيب" لـ : روبين لاكوف تلخِّصه العبارة "لتكن مؤدبا"

3- مبدأ "التواجه واعتبار العمل" لـ : براون و ليفنسن تلخصه العبارة "لتصن وجه غيرك" .

4- مبدأ " التأدب الأقصى و اعتبار التقرب " لـ : ليتش تلخصه العبارتان : " قلِّلْ من الكلام غير المؤدب " و" أَكْثِر من الكلام المؤدَّب ".

5 - مبدأ " التصديق واعتبار الصدق والإخلاص" نسَبَهُ عبد الرحمن طه إلى الماوردي في كتابه " أدب الدنيا و الدين"[5] .

وهذه المبادئ من شأنها أنْ تحفظ حدود العلاقة بين المخاطِب والمتلقي، وتبقي على المسافة بينهما بما يضمن للرسالة البلاغ الحسن.

ج - السياق : وهو جملة الظروف التي تحيط بالفعل الكلامي؛ من زمان ومكان وعلاقة المخاطب بالمتلقي، وغير ذلك مما ليس من عناصر اللغة، وهو<< مجموعة من العوامل التي يتعيَّن على الفرد الاحتفال بها حتى يُوفَّقَ في إنجاز فعله اللغوي>>[6]، وحين نتحدث عن السياق أو المقام فإنَّ الكلام متصل حتما بطرفي الخطاب؛ إمَّا من حيث مكانة كل منهما إزاء الآخر، أو من حيث ارتباطهما بمكان القول وزمانه، ولذلك فإنَّ أهمية السيَّاق لا تقلُّ مراعاتها عن مراعاة حال المتلقي.

وحيث إنَّ المخاطِب في القرآن ليس دائما الذاتَ الإلهية؛ مثل ماهو الحال في القصص، أو خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - المسلمين أو خطابات المسلمين مع الكافرين، أو غير ذلك مما حواه النصُّ القرآني فإنَّ المخاطِب يقع تحت تأثير كلِّ ما ذكرنا من العوامل، وقد قال الله تعالى في توجيه نبيه صلى الله عليه و سلم إلى الطريقة المثلى في الدعوة إلى سبيله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ النحل الآية

125، وفي هذه الآية دليل على أنَّ نجاح الدعوة مرهون بطريقتها وكيفيتها، وأنَّ العدول بالعبارة عن سياقها قد يكون طلبا لهذه الحكمة التي بها وحدها يُستمال المتلقي فيستجيب؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ آل عمران الآية 159، حيث تُبين الآية الكريمة أثر الفظاظة وغلظة القلب في الإعراض عن التلقي، فضلا عن استجابته للرسالة، ولا شك أنَّ الفظاظة وغلظة القلب إنما تكشفها العبارة، ومن هنا تمسُّ الحاجة إلى الوقوف عند بعض صور العدول عن ظاهر النص طلبا لما فيها من دلالات تداولية .

أمَّا في الآيات التي يكون المخاطِب فيها هو الله تعالى فإنه منَّزه عن أنْ يقع تحت تأثير العوامل السابق ذكرها، ولكن تلك الآيات تتضمن بحكمته ولطفه عدولا إلى الملاطفة حين يكون السياق لمثل هذه المعاني، وتتضمن بحكمته كذلك عدولا إلى التهديد أو الوعيد أو التوبيخ أو نحو ذلك حينما يقتضي الغرض تلك المعاني.

وفي ما يلي نماذج نحاول من خلالها الوقوف على البعد التداولي للعدول حيث يكون متصلا بالمخاطِب، نتناول ذلك في مطلبين؛ يتضمن الأول العدول الذي ينوِّه إلى خصوصية مكانة المخاطِب و يتناول الثاني الأفعال الكلامية الإنجازية التي يشير إليها العدول في عبارة المخاطِب .

1-مكانة المخاطِب:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء الآية 64 خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم وتوبيخا للمتخاصِمَيْنِ الَّذين لم يستغفرا الله و لم يرضيا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم .[7]

الشاهد في الآية أنها عدلت عن تعريف الرسول - صلى الله عليه و سلم- بضمير المخاطب إلى النص على صفته (الرسول) إذ السياق يوجب أن يكون التعبير: "واستغفرتَ لهم " لتقدُّمِ ذكر الرسول بضمير المخاطب و لكنه تعالى << لم يقل: "واستغفرتَ لهم " وعدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيما لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعظيما لاستغفاره، وتنبيها على أنَّ شفاعة مَن اسمُه " الرسول " مِن الله بمكان >>[8]، يؤيّد هذا المذهب أنَّ العدول

كان إلى لفظ "الرسول" دون الاسم العلم "محمد" أو لفظ "النبي"، أو أيِّ صفة أخرى من صفاته - صلى الله عليه و سلم - واعتبار هذه الأهمية يعتضد بتردد لفظ "الرسول" في القرآن أكثر من ثلاث وخمسين مرَّة في مقابل الاسم العلم "محمد " الذي لم يذكر إلا أربع مرات .

ولأهمية هذا الوصف<< فإنَّه عدل عن خطابه إلى ما هو من عظيم صفاته على طريقة "حَكَمَ الأميرُ بكذا " مكان "حكمتُ"، وتعظيم الاستغفار من جهة إسناده إلى لفظ ينبئ عن علوِّ مرتبته من جهة التعلق بالرسالة >>[9]، كما أنَّ في لفظ "الرسول" إشارة إلى تميزه - صلى الله عليه و سلم- من جهة الحكومة إذ إنَّ حكومته مؤيدة بالعصمة التي يختص بها دون سائر البشر، و من باب أوْلى دون من احتكموا إليهم، والمقام يستدعي ذلك لأنَّ غاية ما يطلبه المتخاصمون حكمٌ عادل، وهذا المعنى، حتى وإن تضمَّنه ضمير الخطاب في "استغفرت، "إلاَّ أنَّ ذلك عند المؤمنين به دون غيرهم، فيكون في ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - تنويه برسالته وتذكير بها وكذا دعوة إلى التزام طاعته لأنَّه الرسول.

وفي لفظ "الرسول " كذلك قيمة حجاجية تغيب في الضمير؛ ذلك أنَّ العبارة عندئذ تتضمن أنَّ المخاطبين، أو بعضا منهم ينكر، أو يشك في هذه الصفة؛ فكان في ذكرها نصٌّ على ثبوتها و صدقها و ما يترتب على التسليم بها من الإذعان لصاحبها، و<< العدول في مثل قول "الخليفة يأمركم "... قصد من المتكلِّم أنْ يلفت انتباه مخاطَبه إلى ظروف الخطاب ودواعيه ولوازمه، مما يدفع إلى تلقي الأمر بهذه اللوازم و الظروف و يربِّي في نفسه بواعث الالتزام بالأمر وتلقيه >>[10]، وبحَسْبِ هؤلاء المتخاصمين أو من سواهم أن يعلموا أنَّهم يخاطبون رسولا من عند الله ليضعوا الخطاب حيث يجب أن يكون .

وقد تقدم هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وهي صريحة في الدعوة إلى طاعة الرسول- صلى الله عليه وسلم- لأن الغاية من إرسال جميع الرسل إنَّما هي طاعتهم فيما يبلغون عن ربهم، وقد تضمنت كذلك عدولا عن ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله: "بإذن الله " لأنَّ المكان لـ "بإذننا" لتقدُّم قوله: "أرسلنا"، والعدول إلى الغائب مقرون بالعدول إلى الإظهار الذي أفاد تسمية لفظ الجلالة وما يحيل عليه من عظيم الهيبة والمخافة بما يعني أنَّ طاعة الرسول واجب حتمي لأنها بأمر الله تعالى .

والقيمة التداولية لهذا العدول إنَّماهي إسباغ الهيبة و الاحترام و لزوم التأدب مع الرسول << لأنه مؤدٍّ عن الله، فطاعته طاعةٌ لله، ومعصيته معصية لله، و"من يطع الرسول فقد أطاع الله "»[11] ، وما يترتب على ذلك من تأثير مباشر على المتلقي يجعله يتلقى خطاب

الرسول بغير الكيفية التي يتلقى بها أيَّ خطاب سواه ويجعله يستحضر عند كل خطاب أنَّه مأمور بالسمع والطاعة لأنَّ << طاعة الرسول- صلى الله عليه و سلم- وجبت بأمر الله، قال الزجاج : "إلا ليطاع" بإذن الله لأنَّ الله قد أذن فيه و أمر به >>[12].

ولعل من آثار هذا النوع، و إكراما من الله لنبيه – صلى الله عليه و سلم –، أنه لم يُعص ممن آمن به كما عصي بعض الرسل ذلك أنه << من الرسل من أطيع، ومنهم من عصيَّ تارة أو دائما، وقد عُصي موسى – عليه السلام - في مواقع، وعُصي عيسى في معظم أمره، و لم يعصِ محمدٌ من المؤمنين به المحقِّين إلاَّ بتأويل؛ مثلما و قع يوم أحد إذ قال الله تعالى: "وَعَصَيْتُمْ "، وإنَّما هو عصيان بتأويل >>[13].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ ﴾ النساء الآية 122 عدولٌ عن ضمير المتكلم إلى الغائب حيث قال تعالى :"وَعْدَ الله"، ولم يقل: "وَعْدَنَا"، أو "وَعْدًا مِنَّا "لتقدُّمِ ذِكْرِ ضمير المتكلم في قوله: سَنُدْخِلُهُمْ ".

وقد رافق هذا العدول كذلك عدولٌ عن الإضمار إلى إظهار لفظ الجلالة الذي أفاد ذكْرُه أنَّ الوعد هو وعد الله الذي لا تتخلف وعوده، وما في ذلك من مزيد الترغيب و الحث على العمل الصالح لحصول الثقة من العاملين في أنَّ أجورهم مكفولة ومضاعفة لأنه وعد بها و تكفَّل بها من هو الله ، و<< "وَعْدَ اللهِ" مصدر مؤكد لمضمون "سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ" وهو بمعناه؛ فلذلك يسمِّي النحاةُ مثله مؤكِّدا لنفسه أي مؤكِّدا لما هو بمعناه ... و قوله: "حَقًّا" لمضمون "سَنُدْخِلُهُمْ جنَّاتٍ"، وجملة "وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً" تذييل للوعد و تحقيق له، أي هذا مِن وعد الله، ووُعُودُ الله وعودٌ صادقة إذ "لا أصدق من الله قيلا" >>[14]، << فإن قلت ما فائدة هاته التوكيدات قلت معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة، وأمانيه الباطلة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه ترغيبا للعباد في إيثار ما يستحقون به تَنَجُّزَ وعدِ الله على ما يتجرَّعون في عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان>>[15].

والمفهوم من كلام الزمخشري أنَّ ثمة مقابلةً بين حالين؛ حال الكفار الذين امتثلوا أوامر الشيطان وانتظروا وُعُودَه فأخلفها، وحال المسلمين الصالحين الذين استجابوا لدين الله وانتظروا جزاءهم وهُمْ على ثقة في أنهم سيجدونه موفورا، وهذه المقابلة منعقدة بين شرطين و جزاءين تحقق الشرطان أو بعضهما (عمل الفريقين في الدنيا)، والرهان على تحقق الجزاءين،

لذلك فإنَّ المقابلة تقتضي تعزيز موقف المسلمين و تقوية ث قتهم في وعد الله وهو ما نهضت به التوكيدات التالية:

- كونُ الوعد جنات و ما تفيده صيغة الجمع من معاني الكثرة .
- وصفُ الجنات بأنَّها فوق أنهار جارية و ما في ذلك من إغراء و ترغيب
- وصفُهم بأنهم خالدون فيها لا يزولون عنها .
- التأبيدُ المفهوم من لفظه "أبدا".
- الاستفهامُ التقريري المعبور بلفظ " الصِّدْق " .
- صياغةُ المعنى في جملة اسمية وتصدير الآية بالمعنِيِّيَنَ أنفسِهم، وما في ذلك من كمال العناية بما قُدِّم.
- العدولُ عن الضمير إلى الإصراح بلفظ الجلالة و إضافة الوعد إليه بأنه وعد الله و هو ضامِنُهُ .

فيظهر من ذلك أنَّ العدول إلى ذكر لفظ الجلالة، (و قد أتاحه العدول عن التكلم إلى الغيبة) أسهمَ ضمن باقي التأكيدات الأخرى في تعزيز ثقة المتكلم وهو الرسول - صلى الله عليه و سلم – المبلغ عن ربه في ما يَعِدُ به من يخاطبهم.

وبالنظر إلى ما تقدم من أساليب يظهر أنَّ الآكَدَ والضامن لها جميعا هو أسلوب العدول لأنَّه لا قيمة لكل تلك الإغراءات و الأوصاف لو لم يكن من وعد بها هو الله تعالى الذي كان لذكره نصًّا الأثر الظاهر في دلالة الآية .

وفي قوله تعالى مفتتح الأنفال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾: عدول عن الخطاب أو التكلم إلى الغيبة لأنَّ ذكر كاف الخطاب في "يسألونكَ" يقضي بإجراء باقي الكلام على الخطاب فتكون الجملة التالية :" قُلِ الأَنْفَالُ لله وَلَكَ "، أو بإيراده على لفظ الغائب؛ فتكون :"قُلِ الأَنْفَالُ لله وَ لِي " ، ولكن التعبير عدل عن الأسلوبين إلى الغيبة، و في ذلك بالضرورة معنى أو معان.

ولإدراك بعضٍ من هذه المعاني لابدَّ من التعرُّض لسبب نزول هذه الآية لما له من ارتباط وثيق بمعناها:

يذكر المفسرون لنزول هذه الآية سببين : الأول هو اختلاف المسلمين في تقسيم غنائم غزوة بدر؛ ذلك أنَّ الرسول – صلى الله عليه و سلم، تشجيعا منه على الصبر في ملاقاة العدو – قال: " من أتى مكان كذا فله من النفْلِ كذا، و من قتل قتيلا فله كذا، و من أسَر أسيرا فله كذا، " فلمَّا التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات ...>>[16]، فلما ظهر المسلمون على المشركين وقع خلاف بين المسلمين في الأحقِيَّة بالغنائم؛ الشبان حجتَّهم أنَّهم هم من أحرز النصر، والشيوخ حجتهم أنهم كانوا رِدْءًا للشبان وفئةً ينحازون إليهم لو دارت عليهم الدائرة، واشتدَّ الخلاف بينهم حتى قال عبادة بن الصامت << نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النَّفْل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله لرسول الله – صلى الله عليه و سلم - فقسمه بين المسلمين على السواء>>[17].

الثاني: عن سعد بن أبي وقَّاص قال: << قُتل أخي عمير يوم بدر فقتلت به سعد بن العاص و أخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له إنَّ الله قد شفى صدري من المشركين فهب لي هذا السيف، فقال ليس هذا لي و لا لك، اطرحه في القبض، فطرَحتُه و بي مالا يعلمه إلاَّ الله تعالى من قتْل أخي و أخْذ سلبي، فما جاوزت إلا قليلا حتى جاءني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد أنزلت سورة الأنفال فقال: << يا سعد إنَّك سألتني السيفَ وليس لي وإنه قد صار لي فخذه >>[18]

معنى ذلك أنَّ الآية نزلت لفضِّ النزاع القائم في تقسيم الأنفال وتعليم المسلمين الانصياع إلى توجيهات الرسول- صلى الله عليه و سلم - خصوصا الذين يسألونه عن الأنفال؛ << أي حكم الأنفال وعلْمها، و هو سؤال استخبار لا سؤال طلب وقيل هو سؤال طلب قاله الضحاك وعكرمة >>[19]، ذلك أنَّ قوله: << "يسألونك " مؤذن بتنازعٍ بين الجيش في استحقاق الأنفال، و لقد كانت لهم عوائد متَّبَعَةٌ في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها، و تخالفوا في شأنها >>[20].

ويرتبط العدول بسبب النزول بكون فضِّ النزاع بين المتخاصمين – الذي هو سبب نزول الآية – منوطا بالرسول - صلى الله عليه و سلم – بصفته رسول الله ومتصرفا باسمه، فيكون في العدول إلى ذكر لفظ "الرسول" تذكيرٌ و تلويح بهذه الصفة التي ليست لأحد سواه، و في ذلك من الرادع ما يكفي للامتثال لحكمه خصوصا وأنَّ المخاطبين جميعا من السابقين إلى الإيمان برسالته فكيف لا يرضون حكمه.

قال الزمخشري << فإن قلت ما معنى الجمع بين ذكر الله و الرسول في قوله:"قُلِ الأَنْفَالُ لله وَالرَّسُول" قلت معناه أنَّ حُكمها مختصٌّ بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه

حكمتُه، ويمتثل الرسول – صلى الله عليه و سلم – أمرَ الله فيها وليس الأمر فيها مفوضا إلى رأي أحدٍ>>[21].

والجمع بين ذكر الله و رسوله إنَّما أفاده العدول إلى الغيبة، وهذا العدول إنَّما اقتضته مراعاة حال المخاطبين الذين شغلهم حبُّ الغنيمة عن مراعاة وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم – الذي يجب على الجميع النزول عند حكمه، فكان في ذكر صفة الرسول تذكيرٌ و تنويه إلى مقامه – صلى الله عليه و سلم – خصوصا عند من ساورتهم فكرة العمل بنظام الجاهلية في تقسيم الغنائم فلم يكن منهم - رضي الله عنهم - إلاَّ الطاعة و الامتثال.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾ الأعراف الآية 158؛ لم يقل تعالى : " فَآمِنُوا بِالله وَ بِي" وإنَّما نصَّ على ذكر الرسول بصفته، و فيه عدول عن التكلم إلى الغيبة بما يعني أنَّ الرسول - صلى الله عليه و سلم - لا يطلب الإيمان بشخصه و ليس في خطابه أيُّ قدْرٍ من الذاتية، و إنَّما هو يخاطب الناس بصفته رسولا من الله << ليُعلمَ أنَّ الذي وجب الإيمان به و اتِّباعُه هو هذا الشخص النبيُّ الأميُّ الذي يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان، أنا أو غيري إظهارًا للنَّصَفَة وتفاديًا من العصبية لنفسه >>[22].

والقيمة التداوليَّةُ لهذا العدول يبينُ عنها استبعادُ ما قد يساور المخاطبين من وَهْمٍ مفاده أنَّ المخاطِب يدعوا لنفسه ويطلب المجد الشخصي، وبخاصة لما كان الخطاب موجها لجميع الناس لا للمسلمين وحدهم ، << وفي قوله: "وَرَسُولِهِ الَّنِبِّي الأُمِّيِّ " التفاتٌ من التكلُّم إلى الغيبة لقصد إعلان تحقق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - >>[23] وهي إضافة أخرى أفادها لفظ الرسول بصفاته المذكورة لا يُغني عنها ضمير المتكلِّم فيما لو جرى الخطاب على غير العدول .

و في قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ﴾ إبراهيم الآية 01 عدول عن التكلم إلى الغيبة في قوله : " بِإِذْنِ رَبِّهِمْ " لأنَّ الأصل: "بِإِذْنِنَا "لتقدم قوله :" أَنْزَلْنَاهُ "، وقد مكَّن هذا العدول من إضافة معنى جديد لا يُمَكِّن منه التزام الأصل هذا المعنى هو ذكر المَنْزِل؛ وهو الله تعالى باسم " الرَّبِّ "، ومن

ثم الإضافة إلى ضمير المخاطبين إضافة التشريف بما يفيد أنَّ إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنَّما هو بإذن الله الذي هو ربُّهم ومولاهم، و في ذلك تذكير للناس بفضل الربوبية التي من مقتضياتها أنْ يهديَ الربُّ عبده، و فيه كذلك بُعد تداولي يتمثل في إغاظة المعاندين الذين لم يمتثلوا لدعوة الإسلام ،وذلك بمفهوم المخالفة لأنَّ إضافة المُخْرَجين من الظلمات إلى النور إلى اسم " الرَّبِّ " إضافة تشريف فيها إشارةٌ إلى سلب هذا التشريف عن الذين لم يُخرَجوا من الظلمات إلى النور، و<<لأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرَّاتٍ في قوله :"بِإِذْنِ رَبِّهِم إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد "بعد أن كان المقام للإضمار تِبْعًا لقوله: "نْزَلْنَاهُ " >>[24].

وفي العدول إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ المؤمنون الآية 99 << إيحاء بأن المكروب المأخوذ بأهوال البحر يخاطب ربَّه خطابا مباشرا من غير أن يأخذه الخجل أو الحياء من تقصيره في جنبه، و كأنه بهذه الدعوات المتضرعة يريد التقرب إلى الله الذي أبعده عن ذهنه في الرخاء >>[25]، يعتضد ذلك بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ الزمر الآية 08.

وتبدو الأهمية التداولية لهذا العدول في تخبُّط المحتضر في رسم المسافة بينه وبين من يخاطب؛ فهو يلغيها جملةً حين يضيف المخاطَب إلى ضميره في قوله : " رَبِّ " تقرُّبا من الله و تحنُّنًا إليه ، ثم هو يعيد رسمها رسما آخر في خطاب الله بضمير الجمع المؤذِنِ بعلوّ مقام الألوهية وما يترتب عليه من البعد عن مقام العاصي الذي حانت ساعته و لم يبق له أمل في التوبة.

أو هو يحاول الجمع بين التقرب من الله تعالى؛ مرَّة بإضافة لفظ "الرَّبِّ إلى ضمير المتكلم، ومرة بتعظيم خطابه بلفظ الجمع، وفي ذالك إبانة عن الحالة النفسية المأزومة التي يعيشها، حيث اكتشف أنَّه على ضلال تامٍّ، وأنَّ علاقته بكل من كان يعتقد فيهم نفعَه أو إغاثته قد انْبَتَّتْ، وأنَّ الجهة الوحيدة التي يمكن التوجه إليها بالاستجداء هي الله تعالى، فراح يستجمع كلَّ طرائق التقرب منه واستعطافه، وقد مرَّ بنا أنَّ الحالة النفسية للمخاطِب يمكن أن تفرض عليه تكييف خطابه وفق أصناف المخاطَبين .

ولعل في التعقيب على الآية بقوله تعالى: ﴿ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ بلفظ:" كَلِمَةٌ" ما يشي بأنَّ ما قاله المحتضِر كان منتظرا منه، و بالعبارة نفسها، وفي ذلك تأكيد على دلالات العبارة الصريحة والضمنية ، وفيه كذلك إلماعٌ إلى أنَّ النداء الذي أطلقه المحتضر نتاجٌ منطقي متوقع لحالته النفسية، وهو بذلك يكتسب صفة التعميم والشمول لأنَّ كلَّ من كان في مثل هذه الظروف لا يمكنه إلاَّ أنْ يُطلق الخطاب ذاته، وضميرُ الشأن من قوله: " إنَّها" ينطِق بأهمية العبارة التي يُعدُّ ما أشرنا إليه بعضا من معانيها.

وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ ﴾ الرعد الآية 30 عدول عن التكلم إلى الغيبة في قوله: " بِالرَّحْمَنِ " لأنَّ الأصل:" بِنَا " تبعا لقوله:"أَوحَيْنَا".

وحيث إنَّ << العدول عن البنية الأصلية إنباءٌ عن إرادة اعتبار معين يخرج عن محض الإعلام أو الإخبار >>[26] فإنَّ طيَّ الضمير في الآية يشير إلى أنَّ غايتها أمر وراء مجرد تعيين من يكفر به الكافرون، لأن ذكر الضمير كاف للنهوض بهذه الدلالة، وحيث كان القصد إلى ذلك جيء بلفظ" الرَّحْمَنِ" الذي يؤدي هذه الدلالة و يزيد عليها – بدلالته المعجمية وصيغته الصرفية التي تفيد الامتلاء بالوصف – أنَّ الكافرين يقابلون رحمة الله الواسعة بكفرانهم وجحودهم، وفي ذلك تعريض بهم لأنَّ مقابلة الخير بالشر ممَّا ينكره العقل بالفطرة، فتشتمل الآية بذلك على نعي هذه العقول التي تعطلت، كما أنَّ << اختيار اسم " الرّحْمَنِ" من بين أسمائه تعالى لأنَّ كفرهم بهذا الاسم أشد لأنهم أنكروا أنْ يكون الله رحمانا قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ۞ ﴾، فأشارت الآية إلى كُفْرين من كفرهم؛ جحد الوحدانية، وجحد اسم الرحمن، ولأنَّ لهذه الصفة مزيدَ اختصاصٍ بتكذيبهم الرسول – صلى الله عليه وسلم - وتأييده بالقرآن لأنَّ القرآن هدى ورحمة للناس >>[27]، والقيمة التداولية لهذا العدول تظهر في خرْق قاعدة من قواعد التداول هي قاعدة الكمِّ التي تترجمها الجملتان: " لتكن إفادتك المخاطَب على قدر حاجته " و"لا تجعلْ إفادتك تتعدى القدر المطلوب"[28]؛ حيث تجاوزت العبارةُ الحدَّ الأدنى من الإفادة، وهو الإعلام بكفرهم، إلى تضمين الخطاب نصًّا على إثبات ما ينكرونه و التأكيد على رحمانية الله تعالى، وفي ذلك قيمتان؛ تظهر الأولى في أنَّ الخطاب ليس خطابا ابتدائيا، وإنَّما هو كلام على كلام وما يعنيه من تخصيص المتلقي، إذ ليس معنيًّا بهذا الخطاب إلا من كفر بالرحمن، وتتمثل الثانية

في البعد الحجاجي للعبارة المستفاد من كون الخطاب كلاما على كلام – كما تقدَّم – ولا يخفى أنَّ << القيمة الإخبارية للملفوظ قيمة ثانوية بالنظر إلى قيمته الحجاجية >>[29]، والمستفاد كذلك من تعريف لفظ " الرَّحْمَنِ" بالأداة التي لا تخلو أنْ تكون إمَّا للجنس؛ فهو أرحمُ الراحمين، أو للاستغراق فرحمته تعالى أشمل وأعمُّ لكلِّ أنواع الرحمة، أو للعهد؛ بما يعني أنَّ رحمته - تعالى - معروفة معهودة عند جميع الناس، و في ذلك تعريض بمن جهل ما هو معلوم عند الجميع.

و حيث إنَّ << كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التي تحدثها تناسبا طرديا بحيث كلَّما كانت غيرَ منتظرة كان وقعها على نفس المتقبِّل أعمق >>[30] فإنَّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يس الآية 22 حكاية عن حبيب بن أوس النجار في خطابه مشركي أنطاكية[31]؛ حيث << وضع قوله: " وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي" مكان قوله :" وَمَالَكُمْ لاَ تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ >>[32]، و في ذلك انحيَّاز من الرجل إلى المشركين إلى حدِّ التَّماهي، وهو أمر لم يكن من المشركين على بال، إذ كيف ينحاز إليهم ويتماهى فيهم وهو المؤمن الموحِّد، وهم الكَفَرَةُ المشركون؛ وإنَّما صاغ تعبيره على تلك الشاكلة لأنَّه << أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه و هو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريَّهم، و لأنَّه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه >>[33].

ولا شك أنَّ تموقع الرجل في جهة المخاطَبين ذو أثر على تلقِّي الخطاب بل إنه ضمانة لتلقِّيهِ التَّلَقِيَّ الإيجابي، لأنَّه لم يرض لمخاطَبه إلاَّ ما ارتضاه لنفسه، و<< نكتة هذا الالتفات أنَّه يشير إلى ما في نفس الرجل المؤمن من الحرص الشديد على مصلحة قومه؛ فهو لا يريد لهم إلاَّ ما يريد لنفسه، لذلك أخرج لهم الكلام في البدء في معرض مناصحته لنفسه لأنَّ مثل هذا الأسلوب أدلُّ على التلطف بهم و أدْعَى إلى قبول النصح، ثم أقبل الرجل عليهم بوجهه مستخدما ضمير المخاطبين لكونه في مقام التخويف الذي يوجب التخصيص بالمواجهة >>[34]، و في مثل هذا النص يظهر ارتهان الرسالة بأسلوبها، وتتجلى أهمية تكييف الخطاب بحسب المخاطَبين، كما تبدو جليًّا سلطة المتلقِّي على المخاطِب وانحسار هوامش الحرية لدى الأخير.

ومن صور تكييف الخطاب وفق أحوال المتلقي قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ التحريم، الآية 12 حيث قال "من القانتين" ولم يقل "من القانتات"، ولعلَّ المقام المتمثل في حالتها الكسيرة نتيجة (المحظور) الذي بدت عليه ممَّا يدعو

إلى جبر خاطرها ويلحُّ عليه أمام من واجهوها بقولهم " لقد جئت شيئا فريًّا وقولهم " ما كان أبوك امرئ سوء وما كانت أمك بغيا " ، ولعل إدراجها ضمن الرجال وإنزالها منزلتهم الرفيعة وبخاصة في اختصاصهم بهذا النوع من العبادة – شكل من أشكال جبر خاطره والأخذ بيدها فضلا عن تقديمها قدوة لغيرها، وقد رأى بعض المفسرين أنَّ التعبير جارٍ على التغليب لأنَّ << القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغُلِّب ذكوره على إناثه، و"مِن" للتبعيض >>[35]، أو أنَّ "مِن" << لابتداء الغاية على أنَّها وُلِدت من القانتين لأنَّها من أعقاب هارون أخي موسى عليه السلام>>[36] ، وفي ذلك أيضا نسبتها إلى الرجال من جهة أصلها الكريم.

وانفرد الطاهر بن عاشور برأي مقتضاه أنَّ القنوت في الأمة الإسرائيلية من أعمال الرجال ولذلك حُمل في الآية على المذكَّر قال: << ونكتته هنا الإشارة إلى أنَّها في عداد أهل الإكثار من العبادة، وأنَّ شأن ذلك أن يكون للرجال لأنَّ نساء بني إسرائيل معفيات من عبادات كثيرة >>[37]؛ بمعنى أنَّ مريم -عليها السلام- تجاوزت بعبادتها بناتِ جنسها وأتت من الطاعات ما لم تأت به النساء على عهدها، وهذه تزكية يؤكدها الحديث << كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران، وإنَّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام >>[38].

ومن الباحثين من رأى أنَّ إشادة الآية بمريم تتجاوز صبرها على العبادة والقنوت إلى صبرها على مواجهة قومها حيث جاءتهم تحمِل بين يديْها ابنها -عيسى عليه السلام- وهي عذراء وهو موقف عصيب وتُهمة عظيمة تقصِّر دونها عزائمُ الرجال بله النساء .

و<< لنا أن نتخيل من وراء الكلمات والسطور ما تزخر به نفس امرأة عذراء من مشاعر الخجل والانكسار حين تأتي قومها بطفل من غير زوج وهم يوجهون إليها أصابع الاتهام ، وقلَّ ما نجد رجلا بله امرأة يقدر على مواجهة هذه المواقف العصيبة بهذه الدرجة من الهدوء والطمأنينة وقوة الإيمان، ولذلك نسبت إلى جمع المذكر السالم حتى يعكس الأسلوب هذه العزيمة التي لا توجد إلاَّ عند قلائل الرجال >>[39]، وهو التأويل الذي نرجِّحه لأنَّ نسبتها إلى هارون -عليه السلام- صريحة في خطاب قومها لها : "يا أخت هارون"، أمَّا التغليب فإنَّه غير مُقنع في هذا المقام، لأنَّ الأوْلَى أن يَرِد الكلام بالنصِّ عليها لأنها استثناء في جنسها من حيث انقطاعها للعبادة واستثناء في الأحياء جميعا من حيث إنجابها من غير زواج .

2-الأفعال الكلامية الإنجازية:

تعدُّ الأفعال الكلامية أهمَّ مجالات البحث اللساني التداولي على الإطلاق[40] ، وذلك من جهة ارتباط الكلام بأثره العملي الذي هوغايته ومنتهاه كما هو جوهر النظرية التداولية التي ترى الكلام فعلا يتغي بالأساس أفعالا محددة ذلك أنَّ << التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية >>[41]، وكان<< مقتضى التداول أنْ يكون القول موصولا بالفعل >>[42]، وحيث إنَّ بعض صور العدول فيها ما يشير إلى أنَّ الألفاظ المعدول إليها تتضمَّن وقوع الحدث لمجرد وقوع فعل التلفظ، فإنَّه تَوَجَّب إدراجُ بعضِ هذه الصور في هذا المبحث من أجل الربط بين القراءة البلاغية لهذه النصوص ممثَّلة في آراء المفسرين ذوي النهج البلاغي، والقراءة التداولية لها في غير ما انحياز لهذه أو توجُّسٍ من تلك ، ووجه إدراجها هنا هو أنَّ الأفعال الكلامية الإنجازية إنما تفرضها وضعيات تداولية يكون عليها طرفا الخطاب من تشكك، أو ريبة، أو استعجال، أو تكذيب، أو نحو ذلك مما يلجؤ المتكلم إلى توظيف الأفعال الكلامية الإنجازية التي يجد فيها مندوحته لما فيها من ارتباط فوري بين التلفظ بالفعل وحصول أثره الأمر اذي يؤدي إلى تبكيت الخصم .

وابتداءً لابدَّ من الوقوف عند تعريف الأفعال الكلامية كَيْمَا نستطيع مباشرة التحليل بأكثر موضوعية، فـ<< الفعل الكلامي الإنجازي هو الحدث الذي أوجده النطقُ، سواء أكان هذا النطق اسما أم فعلا أم حرفا >>[43]، ويُرَادُ به الإنجاز الذي يؤدّيه المتكلم بمجرد نطقه بمنطوقات معينة[44]، و يوثّق "أوستن" الصلة بين فعل التلفظ والحدث المترتب عنه فيقول في تعريفه الأفعال الإنجازية : << هي كيف أنَّ قَوْلَ شيئ ما هو الأداء و التصرف و الإنجاز، و بعبارة أخرى إنَّ قولنا شيئا ما يعني أنَّنَا قد تصرَّفنا، أو فعلنا شيئا ما، أو على وجه آخر إنَّ النطق بشيء ما هو حصول تعلُّق المفعولية، إذْ التَّصَرُّف يحتاج في حدوثه إلى النطق ... إنَّ النطق بشيئ ما في المعنى المعتاد هو إيقاع الفعل و إحداث أمرٍ ما >>[45] .

و إذن فإنَّ المفهوم من الفعل الإنجازي أو فعل الكلام هو الدلالة المعجمية للفظ الفعل بمعناه العام الذي هو حركة الإنسان أو الكناية عن كل عمل متعدٍّ[46]، و كل ما يمكن أن يدرج تحت حركة الإنسان من مفهوم الإحداث، أو الإيقاع، أو الإيجاد، أو التأثير، أو أيّ عملٍ يكون نتيجةً مباشرة لحركة الإنسان مقرونا أو مترتبا عن الفعل بدلالته التلَفُّظية؛ ذلك أنَّ فعل القول يمكن أنْ يكون محضَ قولٍ لا يتجاوزه بصرف النظر عمَّا يتضمَّنُه هذا القول من معنى ودلالةٍ، ويمكن أنْ يكون قولا متضمنا حدثا هو نتيجة للتلفظ بذلك القول، وبالعودة إلى كتب البلاغة نجد أنَّ البلاغيين تنبَّهوا إلى هذا النوع من الأفعال وسمَّوه أفعال الإنشاء؛ في مثل

قولهم: بِعْتُكَ، وَزَوَّجْتُكَ، وَطَلَّقْتُكِ، وَقَبِلْتُ ... ، ولا أدلَّ على العناية بهذا النوع من المعنى واعتبارِه من قِبَلِ الفقهاء- على وجه الخصوص - من إيقاع الطلاق بمجرد التلفظ بفعله، ولو لم يكن من المطلِّق قصدٌ إليه، واحتسابُ التلفظ به طلقةً، وما يترتب على ذلك من علاقة الزوج بزوجه، بينما يُشترط في الطلاق بالكناية (بغير فعله) توفُّر النية والقصد .

كما أنَّ بعض اللغويين العرب تنبهوا باكرًا لدلالة لفظ الفعل، ولم تصرفْهم عنها دلالته النحوية التي هي تالية لدلالته الوضعية حتما؛ قال ابن الأنباري: << فإن قيل لِم سمِّيَ الفعل فعلا ؟، قيل لأنه يدل على الفعل الحقيقي >>[47]، فـ << الفعل بالمعنى السابق يكون حاملا لقيمة تداولية هامة هي أنَّ تسميَتَه قائمة على الاستعمال والتداول وما يدل عليه، وهي من المجالات المفهومية للتداولية >>[48]، وحتى يكون الفعل إنجازيا لابد أنْ يكون منتميا إلى مجموعة الأفعال الإنجازية، وأنْ يكون فاعله هو نفسه المتكلم، وأن يكون زمنه المضارع[49] .

و لا يخفى أنَّ الفعل الإنجازيَّ بما يحمل في طيّه من دلالة التعهد و الالتزام من قِبَل المتلفظ تجاه المتلقي يَشِي مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ بطبيعة العلاقة بين طرَفَيْ الخطاب؛ ذلك أنَّ في دلالة التعهد والالتزام تبديدا لظلال الشكوك التي قد تعتري المتلقيَّ، وهي التي تسلِّط ضغطا على المخاطِب يجعله يُخرج عبارته مخرج التوكيد الذي لا شك معه، وهُنا يبدو العدول عن المستقبل إلى الماضي- مثلا -، أو إلى اسم المفعول، أو نحو ذلك من الصور التي تقدِّم ما لم يقع في صورة الواقع المفروغ منه، قسيما لأساليب التوكيد الأخرى، ومساحةً لتداولِ اللغة بكثير من الأريحية و الطمأنينة، على الأقلّ من قِبَل المخاطِب الذي يستشعر- بسلوكه اللغوي هذا - أنَّه أدى ما عليه من واجب طَمْأَنَةِ المتلقّي إلى صِدْقِيَّةِ الرسالة.

ففي قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل الآية 01؛ قال ابن عباس: << لمَّا نزلت " اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ" قال الكفار إنَّ هذا يزعم أنَّ القيامة قد قربت فأمسِكُوا عن بعض ما كنتم تعملون، فأمسَكوا وانتظروا فلم يروا شيئا، فقالوا ما نرى شيئا، فنزلت" اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ"، فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فامتدَّت الأيام فقالوا ما نرى شيئا، فنزلت " أَتَى أَمْرُ الله" فوثب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- و المسلمون وخافوا فنزلت " فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه " فاطمأنُّوا ... >>[50] ؛ والخطاب في الآية موجه للمشركين عل جهة الوعيد لأنَّ أمر الله هو عقابه لمن أقام على الشرك و تكذيب الرسول - صلى الله عليه و سلم -[51] و من ثمَّ فإنَّ المتلقي الذي يتوجه إليه هذا الخطاب من النوع الجاحد المعاند الذي لا يسلِّم بسهولة؛ ممَّا يستلزم خطابه خطابا مؤكَّدًا لعله يصدق، و تقديمُ ما لم يقع في صورة الواقع سبيلٌ من سبل التوكيد كما هو معلوم، إلاَّ أنَّ الذي نريد إضافته في هذا

المكان من البحث هو أنَّ إدراج التعبير عن الحدث المستقبل بصيغة الماضي في خانة الأفعال الكلامية فيه حمولة دلالية إضافية مؤدَّاها أنَّ مجرد التلفظ بالفعل الذي يؤديه الرسول - صلى الله عليه و سلم - المبلِّغُ عن ربِّه يُدخل الحدث حيّز التنفيذ في ما يشبه دعوة من المخاطِب إلى المتلقي بتجاوز الشكِّ في إمكانية وقوع الفعل- لأنه ببساطة صار في حكم المفروغ منه - إلى الحديث عمَّا يستوجبه وقوعه كما الحال هنا، لأنَّ في قوله تعالى:" أتى أمر الله " دعوة ضمنية إلى العمل لما بعد إتيان أمر الله، و في وثوب الرسول - صلى الله عليه و سلم - والمسلمين عند نزول الآية ما يثبت أنَّهم تأكَّدُوا من وقوع الفعل بمجرد سماعهم الآية، وأنَّهم أدركوا أنَّ << أخبار الله في الماضي والمستقبل سواء >>[52].

وفي قوله تعالى في شأن العصاة من قوم نوح - عليه السلام : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ هود الآية 37، يُفهم من العدول عن الفعل المضارع المسبوق بأحد حرفي التسويف : "سَيَغْرَقُوَن"، أو"سَوْفَ يَغْرَقُونَ " إلى اسم المفعول تأكيدٌ على أنَّ إغراقهم أمرٌ حاصل لا محيص عنه لأنَّ المعنى << لا تطلب إمهالهم فإنّي مغرقُهم>>[53]، << لأني قضيت أنهم مغرَقون على ما هم عليه من الكفر و الطغيان >>[54].

ومعنى قوله تعالى: " إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " - والله أعلم بمراده - بالاستناد إلى ما تقدَّم من كلام القرطبي، وابن كثير أنَّ قرار إغراقهم قد تمَّ ولم يعد قابلا للمراجعة ومعنى ذلك أنَّ التلفُّظَ به أدخله حيّزَ التنفيذ، ولا ضير إذْ لم تكن الكلمة "مُغْرَقُونَ" فعلاً لأنَّ الأفعال الإنجازية يمكن أنْ تكون ضمنية غير مباشرة [55].

و بالعودة إلى موضوع الآية فإنَّ المتلقيَّ نوحا - عليه السلام - و قد عَلِمَ أنَّ الهلاك أوشك أنْ يحيق بأمَّته، وفيهم ابنه، وحرصُه -عليه السلام- على نجاة قومه و ابنه لا يحتاج إلى استدلال، قد قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾، إلاَّ أنَّ الله تعالى أجابه:﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ بما يعني أنَّ الآية تيئيس لنوح عليه السلام من أن يعاود الطلب حتى قال:﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾؛ فيكون بالتالي العدول الحاصل إلى اسم المفعول من باب إيراد أمر إغراقهم موردَ الواقع المفروغ منه بمجرد التلفظ بالفعل خصوصا وأنَّ المتكلم لا معقِّب لحُكْمه بما يجعل نوحا عليه السلام لا يفكِّر في الطلب مرة أخرى، وفي ذلك توجيه له و تأسيس لما يجب أن

يكون عليه خطابه عليه السلام لربه في شأنهم بتحديد مَعْلَمِ البداية بالانطلاق في الخطاب من طيِّ صفحتهم وتجاوزهم إلى غيرهم .

و في قوله عزَّ اسمه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ الفتح الآية 01 عدول عن المستقبل إلى الماضي لأنَّ الآية << نزلت مرجعَ رسول الله -صلى الله عليه و سلم- عن مكة عام الحديبية عِدَةً له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي لأنَّها في تحققها بمنزلة الكائنة>>[56]، و<< المعنى سنفتح، و إنَّما جيء في الإخبار بلفظ الماضي لتحقُّقِه وتيقُّنِه شبَّه الزمن المستقبل بالزمن الماضي فاستعملت له الصيغة الموضوعة لمعنى المُضي >>[57].

وإذا عدنا إلى السياق التاريخي للآية واستحضرنا وقائعه المتمثلة في صد المسلمين المعتمرين عن دخول مكة المكرمة، وما نتج عن ذلك من صلح الحديبية الذي بدا للمسلمين أنَّ بنوده مجحفةٌ في حقهم، فاستعظموا أنْ يعودوا بِهَدْيِهم إلى المدينة، أو أن ينحروه إلى الحد الذي جعل الرسول صلى الله عليه و سلم - يقول لأمِّ المسلمين؛ أمِّ سلمة هلك المسلمون؛ لأنه أمرهم بالحلق والنحر فتثاقلوا ولم يفعلوا إلاَّ بعد أنْ عمل النبي- صلى الله عليه وسلم- برأيِ زوجه فما كان من المسلمين بعد ذلك إلاَّ أنْ امتثلوا .

إذا استحضرنا هذا السياق بما فيه من تحرُّج المسلمين من ثنيهم عن الاعتمار ومن طائلة صلح الحديبية التي سيقعون تحتها عشر سنوات كاملة، وتأذِّي الرسول-صلى الله عليه وسلم- من تثاقل أصحابه في تنفيذ أمره بالحلق والنح؛ فَهِمْنا أنَّ الآية في مجملها بشارةٌ للنبي-صلى الله عليه و سلم-و تطمينٌ له ولأصحابه، و فهمنا أنَّ في العدول عن المستقبل إلى الماضي تأكيدا للوعد، وقد ظاهر هذا التأكيدُ أداة التأكيد الصريحة " إنَّ "، ولام التخصيص في قوله: " لك "، و في هذا الحشد لأساليب التوكيد ما يملأ قلب الرسول-صلى الله عليه وسلم- مسرة إلى الحد الذي جعله يقول بعدها: << لقد أنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إلي من الدنيا جميعا >>[58]، خصوصا و قد وُصف هذا الفتح بأنه مبين و شُفِع بمغفرة شاملة للنبي-صلى الله عليه و سلم-، و ما يزيل عن المسلمين شعورهم بالانخذال ويعوِّضهم عن رجوعهم هذا بفتح مؤزَّر، وهُم في قوة و مَنَعَة، وفيه كذلك ما يغيظ المشركين و ينغِّصُ عليهم شعورهم المؤقَّت بالانتصار في صلح الحديبية لأنَّهم هم الذين أمْلوا شروطه

وحَمْلُ فعل الفتح في الآية على الأفعال الإنجازية هو الضامن لكل المعاني المتقدمة لأنَّ استشعار المخاطَبين قطْعيَّة وقوعه أيْ إنجازيتَه، وأنَّه في قوة العهد الذي أَلِفُوا إِنْفاذَه بلفظ الماضي في مثل قولهم: بِعْتُكَ، و زَوَّجْتُكَ، و أَجَرْتُكَ، وسَالَمْتُكَ ... هو الذي يجعل له كلَّ هذا الأثر، و أين عهود البشر من عهود الله الذي لا رادَّ لقضائه ؟

كما أنَّ في هذا العدول كذلك قيمةً تداوليةً أخرى هي ما عبَّر عنه الزمخشري بقوله:<< في ذلك من الفخامة و الدلالة على علو شأن المخبِر ما لا يخفى >>[59]، و هي ترجمة لمطلق قدرة الله الذي يستوي عنده المستقبل و الماضي؛ إذ لا شيئ يعطِّل إرادته؛ ممَّا يوجب على الناس مخاطبته بهذا الاعتبار، و فهمَ كلامه في هدي هذه الحقيقة، و هو كذلك ممَّا يُمكن أن يُحمل على التنبيه على مكانة المخاطِب و التذكير بها حمْلا للمتلقّي على تلقّي الخطاب التلقيَّ المناسب لمصدره.

ومما يمكن أن يُحمل على الأفعال الإنجازية قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ الكوثر الآية 01 ؛ لأنَّ أشهرَ ما فُسِّر به لفظ الكوثر أنَّه نهرٌ في الجنة أُعطيَّه الرسول- صلى الله عليه و سلم-[60] و أحداث الجنة مستقبلية؛ فيكون الأصل " نُعْطِيكَ "، أو" سَوْفَ نُعْطِيكَ" ولكن الآية وردت بصيغة المضي معتضدة كسابقتها بأداة االتوكيد" إنَّ "، و باسمية الجملة وما فيها من دلالة الثبات، كلُّ ذلك من أجل تبشير النبي-صلى الله عليه و سلم-هذه البشارة العظيمة وطمْأَنَةِ قلبه؛ ذلك أنه ممَّا يروى سببا لنزول السورة أنَّه-صلى الله عليه وسلَّم- كان << قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلا رجلا؛ فساءه ذلك فنزلت " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ... " نَهْرٌ في الجنة، و نزلت "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...خَيْرٌ مِنَ أَلْفِ شَهْرٍ، تملِكها بنو أمية ؛ فحَسِبْنا ذلك فإذا هو لا يزيد و لا يَنقُص >>[61].

و في تخريج فعل الإعطاء مخرج الأفعال الإنجازية إشارة إلى أنَّ وعد الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه و سلم -يقع موقع الأفعال المنجزة المفروغ منها وما يترتب عليه من دخول المسرة على قلبه الذي يجد في موعود الله المنجز ما يعوضه عن استيائه من رؤياه تلك التي أَثَّرَتْ فيه إلى الحد الذي لم يُرَ بعدها مستجمعا ضحكه واستهلاله كما كان يفعل من قبلها[62]، ويعوضه عن تعيير المشركين له بأنَّه أبتر وذلك في قوله تعالى إثر آية البشارة " إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ.

ولعل فيما تقدم ما يكفي للتمثيل للأفعال الإنجازية التي يكون الفاعل فيها هو الله - تعالى، وهذه نماذج عن بعض الأفعال الإنجازية التي يكون الفاعل فيها غيرُه :

وأرى أنَّ أهمَّ الأفعال التي تَحمل دلالة الإنجاز و يمكن تصنيفها ضمن الأفعال الإنجازية هي تلك التي يترتب على التلفظ بها الدخول في الإسلام أو الخروج منه، أو الدخول في الكفر أو الخروج منه؛ وأكثر الأفعال صراحة في هذا المعنى هما الفعلان "آمَنَّا، و" كَفَرْنَا" اللذان يدلاَّن دلالة مباشرة على الدخول في العقيدة أو الخروج منها .

فالفعل "آمَنَّا" تواتر وروده بمعنى الفعل الإنجازي في القرآن ثلاثين مرة (البقرة؛ الآيات: 8، 14، 76، 136 ، آل عمران؛ الآيات: 7، 16، 52،53، 84، 119، 193، الأعراف؛ الآية: 121، طه؛

الآيتان: 70، 73، المؤمنون؛ الآية: 109، النور؛ الآية: 47، الشعراء؛ الآية:47، القصص؛ الآية: 53، العنكبوت؛ الآيات: 2، 10، 46، سبأ؛ الآية: 52، غافر؛ الآية: 84، الحجرات؛ الآية: 14، الجن؛ الآية: 2).

والفعل "كَفَرْنَا " مُسندا إلى ضمير المتكلمين (لأنه شرط في إنجازية الفعل) في ثلاث آيات هي:

- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ إبراهيم الآية 09 ،
- وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ غافر الآية 84 ،
- وقوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ ﴾ الممتحنة الآية 04 ؛

وحيث إنَّ << الفعل الكلامي الإنجازي هو الحدث الذي أوجده النطق >>[63] فإنَّ مجرد التلفظ بفعل الإيمان أو الكفر يعني أنَّ المتلفظ أوجد حدثا هو دخوله من فوره في إحدى العقيدتين، و لمَّا كان الإيمان لا يكتمل إلا بجملة من الأقوال والأفعال التالية للحظة التلفظ بفعله كانت دلالة التلفظ مصروفةً إلى المستقبل؛ وهو شرط كي يكون الفعل إنجازيا- كما تقدم- وكان التعبير عنها بصيغة الماضي عدولا عن مقتضى الظاهر.

و من الآيات التي نجد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ آل عمران الآية 52؛ لأنَّ في قول الحواريين "آمَنَّا " إنجازًا لحدثٍ هو اصطفافهم مع نبي الله - عيسى عليه السلام - ومناصرتهم له مِن تَوّهِم ذاك.

و قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ المائدة الآية 83؛ إذ في قولهم "آمَنَّا " إعلان عن دخولهم في عقيدة التوحيد بعد تأثُّرهم بما سمعوا من كلام الله، و قد جاء جوابا للشرط، ومعلوم أنَّ في الشرط فعلين، أو لنَقُل حدثين؛ حدث الشرط وحدث الجزاء، بحيث يرتهن الثاني بالأوَّل، والحدث الأوَّل -هنا- هو سماع القرآن ، والحدث الثاني إعلانُهم الدخول في الإيمان بقولهم : "آمَنَّا ".

و كذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ طه الآية 70؛ إذ يُعدُّ التلفظ بالفعل "آمَنَّا" لحظةً فارقة بين حياة الشرك وحياة التوحيد، ولا أدلَّ على إنجازية هذا الفعل من تَعقُّبِ فرعون للسحرة وتوعُّده إيَّاهم .

وبالمقابل فإنَّ فعل الكفر هو إنجاز لحدث الدخول في عقيدة الكفر في مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ غافر الآية 84؛ لأنَّ قولهم "كَفَرْنَا" إعلانُ قطيعةٍ مع الشرك، فهو حدث و إنجاز، و لكنَّه إنجاز لا يترتَّب عليه أثر لفوات أوانه .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ ﴾ الممتحنة الآية 4؛ لأنَّ قول المؤمنين" كَفَرْنَا بِكُمْ " صريح في مواجهة المشركين بإعلان اعتناق العقيدة الجديدة ممثلة في اتِّباع دين إبراهيم-عليه السلام، وهو فعل إنجازي بامتياز لما يترتب عليه من عداوة و بغضاء مع قومهم لم تكن موجودة قبل لحظة التلفظ تلك .

ومن الأفعال الإنجازية الأخرى غير فِعْلَيْ الكفر والإيمان أفعال كثيرة كقول الكفار :﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا ﴾ البقرة الآية 93، أو قول اليهود: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ

مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ ﴾النساء الآية 46، وذلك لما في الفعل الماضي "عَصَيْنَا " من دلالة على الإصرار و البقاء على العصيان مستقبلا؛ أي: "سَنَعْصِي"

و كقوله تعالى حكاية عن نبيّه إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ ﴾ البقرة الآية 131 لأنَّ دلالة " أَسْلَمْتُ " تمتدُّ في الزمن المستقبل ما بقيَّ حيًّا، فهي في مكان قوله: "أُسْلِمُ "، و من ذلك تستمدُّ إنجازيَّتها لأنها تَعَهُّدٌ بالبقاء على إسلام وجهه لله تعالى .

و مثل قول بلقيس لما دخلت على نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤ ﴾ النمل الآية 44؛ لأنَّ قولها " أَسْلَمْتُ " خروج من عقيدة و دخول في أخرى و تعهد بالبقاء عليها .

ولعلَّ في الشواهد المتقدمة ما يكفي للاستدلال على أنَّ منشئ الخطاب لا يتمتع بالحرية المطلقة في بناء خطابه ولكنه يقع تحت تأثير مجموعة من القوى الضاغطة التي لا يستطيع تجاوزها من منطلق حرصه على وصول الرسالة، الأمر الذي يفرض عليه استرضاء من يخاطب ومراعاة شأنه وأحواله فيتلطف به أو يعلي من مكانته أو يتفاءل في حديثه إليه وبالجملة يتجنب كل ما من شأنه إثارته أو إغضابه أي يجعله في حالة سكينة وأقبال علي وهي حالة التلقي المثلى، وإذا كان هذا حال الخطابات القرآنية فإنَّ الخطابات البشرية هي الأخرى تراعي مثل هذه العوامل واللغة العربية ثرية ثراء كبيرا بما ينهض شاهدا على الفكرة ؛ وباب التضاد أقوى ما يستدل به في هذا الموضوع ؛ حيث نرى أن مراعاة أحوال المتلقين والتلطف بهم ، جعل المتكلم يعدل عن تحميل اللغة فكرته ويخلي سبيلها أصلا متكئا على الدلالات السياقية في كل ما يمكن أن يسبب حرجا للمتلقي؛ فهو يتفاءل بالرجوع فيسمي الركب المرتحل "قافلة" مخافة أن يثير حفيظة المتلقي إن هو دعاها "الرائحة" أو "الذاهبة" لأن غاية ما ينتظر المتلقي هو قفول الركب بالسلامة ، وهو يسمي الصحراء " مفازة" ، والأعمى "بصيرا"، واللديغ "سليما" ولا مانع له في كل هذا من تسمية المعاني بأسمائها إلا مراعاته لحال المتلقي وحرصه على رضاه ، بمعنى أنَّ المخاطِب لا يستطيع أن يقول ما يريد بالكيفية التي يريد،ولا يمكنه توظيف اللغة المباشرة إلأا حين لا تتعارض ومقتضيات الخطاب،ومن ثمَّ ساغ لنا أن نصف المتلقي بأنه منتج ثان للنص .

الهوامش:

[1] - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، دار الزمان، دمشق، ط 1، 2010 ، ص 227 .

[2] - ينظر: السكاكي؛ مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ، 1987 ، ص 285 .

[3] - عبد السلام المسدي؛ الأسلوب والأسلوبية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ودار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1 ، 2006 ، ص 64 .

[4] - محروس محمد محروس؛ البنية الصرفية وأثرها في تغيير الدلالة -دراسة تطبيقية على قراءة عاصم، دار البصائر، مصر، 2007، ص 193.

[5] - ينظر: طه عبد الرحمن اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، المغرب ، ط3 ، 2012م ، ص:238 – 253 .

[6] - الجلالي دلاش؛ مدخل إلى اللسانيات التداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها، نقلا عن خليفة بوجادي؛ في اللسانيات التداولية ، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط2 ، 2012 ، ص 93 .

[7] - عن قتادة والشعبي << أنّ يهوديًّا اختصم مع منافق اسمه بِشْر فدعا اليهودي المنافق إلى التحاكم إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم - لعِلْمه أنَّه لا يأخذ الرشوة، ولا يجور في الحكم، ودعا المنافق إلى التحاكم عند كاهن من جُهينة كان بالمدينة ، وعن ابن عباس أنَّ اليهوديَّ دعا المنافق إلى التحاكم عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنَّ المنافق دعا إلى كعب بن الأشرف فأبى اليهوديُّ، وانصرفا معا إلى رسول الله، فقضى لليهوديُّ، فلمّا خرجا قال المنافق لا أرضى، انطلق بنا إلى أبي بكر، فحكم أبو بكر بمثل حكم رسول الله فقال المنافق انطلق بنا إلى عمر، فلمَّا بلغا عمر وأخبره اليهوديُّ الخبر وصدَّقه المنافق قال عمر: رويدَكما حتى أخرج إليكما، فدخل وأخذ سيفه، ثمَّ ضرب به المنافق حتى برد، وقال هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت الآية؛ فقال جبريل: إنَّ عمر فرَّق بين الحق والباطل، فلقبه النبيَّ بالفاروق >> الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير ، 102/2 ، 103 .

[8] - الزمخشري؛ الكشاف، شرح وضبط يوسف الحمادي، مكتبة مصر، الفجالة، مصر، 2000 1، /460 ، وينظر: الخطيب القزويني؛ إيضاح التلخيص، شرح محمد خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط3، 198م ، ص 161.

[9] - الشهاب الخفاجي؛ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، طبعة بولاق، القاهرة،1283هـ ، 151/3 .

[10] - خليفة بوجادي؛ في اللسانيات التداولية: ص 142 .

[11] - الزمخشري؛ الكشاف: 460/1 .

[12] - البغوي؛ تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م، ص 315 .

[13] - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د. ت ،109/2 .

[14] - نفسه : 207/2 .

[15] - الزمخشري؛ الكشاف، 492/2.

[16] - البغوي؛ تفسير البغوي : 510 ، 511 .

[17] - الزمخشري؛ الكشاف: 232/2 .

[18] - نفسه : الصفحة نفسها، وينظر: صحيح مسلم تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، د .ط، د . ت: 1367/2 ، و 1877/4 .

[19] - البغوي؛ تفسير البغوي : 511 .

[20] - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير: 248/4 .

[21] - الزمخشري، الكشاف 233/2 .

[22] - نفسه : 209/2 .

[23] - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير 141/4 .

[24] - نفسه : 180/6 .

[25] - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص 222 .

[26] - صابر الحباشة؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، دار صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ط1، 2011 م، ص 100 .

[27] - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير: 140/6 .

[28] - ينظر: طه عبد الرحمن ؛ اللسان والميزان : ص 238 .

[29] - صابر الحباشة ؛ مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية ، ص 30 .

[30] - Michael Riffaterre ; Essais de stylistique structurale ؛ نقلا عن المسدي؛ الأسلوبية والأسلوب، ص 78.

[31] - هو حبيب ابن أوس النجار : أول من آمن برسل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ، وهو ممَّن آمن بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يره ، ينظر: الكشاف: 647/3 .

[32] - نفسه : 648/3 .

[33] - نفسه 647/3 .

[34] - صالح ملا عزيز؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، ص 213 .

[35] - الزمخشري ؛ الكشاف : 429/4 ، وينظر: النسفي ؛ تفسير النسفي:4/ 273 ، والتحرير والتنوير : 379/11 .

[36] - النسفي ؛ تفسير النسفي: 273/4 ، وينظر: الكشاف:429/4 .

[37] - الطاهر بن عاشور ؛ التحرير والتنوير: 379/11 .

[38] - البخاري ؛ صحيح البخاري : 1252/3 و 1266/3 ، و 1374/3 ، ومسلم ؛ صحيح مسلم: 1866/4 ، وابن حبان ؛ صحيح ابن حبان: 51/16 .

[39] - صلاح عبد الفتاح الخالدي ؛ لطائف قرآنية ، دار القلم ، دمشق ، ط2 ، 1998م ، ص 146 ، 147 ، نقلا عن صالح ملا عزيز ؛ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، ص251 .

[40] - ينظر: علي محمود حجي الصراف؛ الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص 22 .

[41] - نفسه : ص 10 .

[42] - طه عبد الرحمن؛ تجديد المنهج في تقويم التراث، ص243، نقلا عن خليفة بوجادي؛ في الألسنية التداولية،ص 121.

[43] - علي محمود حجي الصراف؛ الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة ، ص 11 .
[44] - نفسه : ص 22 .
[45] - أوستن؛ نظرية أفعال الكلام العامة، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2008 ، ص 123 .
46 - ينظر: الفيروز أبادي؛ القاموس المحيط ، تح مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر: ف.ع.ل.
[47] - ابن الأنباري؛ كتاب أسرار العربية، ص11، نقلا عن خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية ، ص: 164 .
[48] - خليفة بوجادي ؛ في اللسانيات التداولية : ص 164 .
[49] - ينظر: أحمد المتوكل؛ اللسانيات الوظيفية ،ص 19 ، نقلاعن خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية ، ص 77 .
[50] - القرطبي؛ تفسير القرطبي ، 66/10 .
[51] - نفسه : 65/10، وينظر: الطبري ؛ تفسير الطبري 76/14 .
52 - القرطبي؛ تفسير القرطبي، تح أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة ط1427،1هـ - 2006م، 65/10 .
[53] - نفسه: 30/9 .
[54] - ابن كثير؛ تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، د.ط ،1401هـ ، 245/3 .
[55] - ينظر: خليفة بوجادي؛ في اللسانيات التداولية ، ص 77 .
[56] - النسفي؛ تفسير النسفي مدارك التنزيل وخصائص التأويل، دار الفكر، بيروت د. ط ، د. ت، : 156/2 ، والزمخشري؛ الكشاف 225/4 .
[57] - الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير : 144/10 .
[58] - القرطبي؛ تفسير القرطبي 260/16 .
[59] - الزمخشري؛ الكشاف: 225/4 .
[60] - ينظر: القرطبي ؛ تفسير القرطبي : 220/20 ، والطبري ؛ تفسير الطبري ، دار الفكر ، بيروت ، 1405هـ : 321/30.
[61] - الحاكم النيسابوري؛ المستدرك على الصحيحن،تح عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ 1990م، 591/4، وينظر: علي بن أبي بكر الهيثمي: مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، 1407هـ 244/5، و أحمد بن علي الموصلي أبو يعلى؛ مسند أبي يعلى، تح إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل أباد، ط1، 1407 هـ ، 348/11، ومحمد بن أحمد الذهبي؛ سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 9 ، 1413 هـ ، 108/2 ، والقرطبي؛ تفسير القرطبي: 283/10 .
[62] - الحاكم؛ المستدرك على اصحيحين :527/4 .
[63] - علي محمود حجي الصراف ؛ الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة ، ص 11 .